فصل ثان من نشأة الادبية

الشعر والثقافة

لعبد الرحمن شكري

قد أوضحت في المقال الاول مصادر الثقافة التي تأثرتها في الجزء الاول من ديواني من عربية واوربية والاحوال التي جعلتني أتأثرها وأوضحت اثر احتذائي بشار بن برد والحسن ابن هاني ومسلم بن الوليد والعباس بن الاحنف وابا تمام وابن المعتز والشريف الرضي والمعري وغيرهم ولم اذكر المتنبي في المقالة ولو ان اثره كان كبيراً من الناحية الفكرية لا من ناحية الاسلوب لأن الذين يُفَضِّلون في اثناء احتذاء الاساليب والصنعة البيانية هم الذين ذكرتهم قبل وذكرت شواهد هذا الاحتذاء والتأثر ومهما تكن عيوب الاحتذاء فانهُ افادني ومنعني عند اطلاعي على الشعر الاوربي من الاندفاع وراء الاوهام والمغالاة والتجارب العقيمة ولا سيما ان هذا الاطلاع وهذا الاحتذاء للشعر العباسي العالي في كتاب الوسيلة الادبية وغيره من الكتب كانا في سن مبكرة جداً وابتدأا من السنة الاولى الابتدائية وكانت وقتئذٍ تعادل في السنّ والمعارف السنة الثالثة الآن وربما كان من الفائدة اني تأثرت بشعر التنسيق والصنعة العباسية قبل ان أتأثر بشعر العاطفة العذري الذي هو أقدم منهُ زمناً ولو ان الصنعة العباسية في بعضها عبث في العاطفة ولم أتأثر بشعر الشعراء العذريين من شعراء العرب الاّ بعد عودتي من انكلترة في الجزء الثالث وما بعده . ولعل اطلاعي على نسيب كتاب (الذخيرة الذهبية) في الشعر الانكليزي ونسيب بيرون وشلي قلل من مغالاتي في عبث نسيب الصنعة العباسية واكسبني شيئاً من العاطفة الفنية وكنت في ذلك الوقت لا استطيع أن أنقد بيرون ولا أن أفهم عيوبه ولا ان اعرف ان النفوس التي يصفها متقاربة محدودة الصفات عقيمة في بعض اعمالها وأحاسيسها وانما راقني منهُ ما رأيته من قوة شعره واندفاعه اندفاع السيل الآنيّ وثورته على الاكاذيب. وقد علمني بيرون نشدان الحرية وان كنت لا أتصرها على طريقة السياسي وانما على طريقة الفنان كما في قصيدة (الحرية) و (العصر الذهبي) وغيرها وقد كنت احب شلي ايضاً

ولم أكن استطيع ان انقده في ذلك الوقت وان انهم ان خياله في بعض الاحايين يحلق في السحاب بعيداً عن حقائق الحياة ولا ان نصبهُ ضد الاديان مما أخلَّ بمزاياه التي وان كان يعجبني منهُ طموحه الى المُثُل العليا وحبهُ الحرية وكرههُ النفاق وكانت تعجبني بعض تشبيهاته الرائعة السائدة في كل لغة وتسميه الرتيق الذي لم يشقه بالخيال المتكاثف كما كان يفعل أحياناً وقد بقي معي من الثقافة الشعرية الاوربية اثر بيرون وشلي حتى بعد عرفاني حدود ونقائص شعرهما . ولعل اعظم مورد لثقافتي الاوربية كان سفري في البعثة العلمية الى انكلترة سنة ١٩٠٩ وهذا المورد كثير الجداول والعيون فنهُ الثقافة التي ادى اليها اختلاف مظاهر الطبيعة في انكلترة عنها في مصر والثقافة التي دعت اليها دراستي جوتي الحكيم الالماني ودراستي المحجين به امثال كارليل وامرسون والثقافة التي كنت ادرسها في جامعة شفيلد في التاريخ والجغرافية والاقتصاد السياسي وعلم السياسة والنظريات السياسية ونُظُم الحكم والثقافة التي سهَّلها وجودي في انكلترة وهي ثقافة دراسة الشعراء الذين كانوا في ذلك الوقت يعتبرون الشعراء الحديثي العهد مثل سوينبورن وروزيتي واوسكار وايلد وغيرهم وامثالهم ممن ترجم بعض شعرهم الى الانكليزية امثال بودلير والثقافة التي مكنني منها علمي بطبعات مختلفة في انكلترة لمصادر الثقافة المختلفة وسهولة الحصول على كتب منها اما بالشراء واما بالاستعارة من المكتبات مثل طبعة بوهن وكان بها جميع مؤلفات جوتي مترجمة الى الانكليزية ومؤلفات هيني الشاعر الالماني الناسب الساخر وغيره من ادباء الالمان وفلاسفتهم امثال شوبنهور وكان بها اكثر كتب الأدب والفلسفة الاغريقية القديمة مترجمة ومثل طبعة فريمان وهي معروفة افادت كثيراً من المطلعين وبها مصادر متعددة للثقافة الانكليزية وثقافات اللغات الأخرى منقولة الى الانكليزية ولا سيما اكابر شعراء الاغريق القدماء ومنها طبعة كانتربوري وكانت بها مجموعة صالحة من شعر شعراء الانكليز والامم المختلفة مترجمة ايضاً وطبعة سكوت وكانت ايضاً من أكثر الطبقات تنوعاً وطبعة روتلدج على اختلاف اقسامها وطبعة لين التي بها جميع مؤلفات اناتول فرانس مترجمة الى الانكليزية وطبعات اخرى عديدة لا داعي لحصرها وهذه الطبعات قلما كنا نعثر بمؤلفات كثيرة منها في ذلك العهد في مصر واذا عثرنا فلم نعثر بالكثرة التي وجدناها في انكلترا وبالاثمان الرخيصة التي كانت سائدة في ذلك الوقت وهذه الثقافات كلها لم تُنسني الأدب العربي والثقافة العربية لاني اخذت كتبي معي وكنت ادمن قراءتها : (١) فأما الثقافة الاولى وهي ثقافة تعدد مناظر الطبيعة وتنوعها في انكلترا فقد كان لها أثر عظيم في نفسي حتى في اثناء سفري الى مستقر اقامتي وأنا انظر من نافذة القطار ولا ازال اذكر ملاحظتي لاختلاف تلك المناظر التي رأيتها من نافذة القطار عن المناظر التي كنت أراها من نافذة القطار في مصر . ففي مصر نرى الارض سهلاً كأنما

منها مهندس بالمطرة على ورقة وعلى مستوى واحد وفي انكلترا ترى القطعة الصغيرة من الارض تتفاوت في الارتفاع والمظهر تفاوتاً عجيباً وقد بقي اثر تعدد مناظر الطبيعة في نفسي حتى بعد عودتي من انكلترا وفي انكلترا رأيت الوديان الصغيرة التي تحوطها الجبال ورأيت التلال والجبال مكسوة بالاشجار ومغطاة بالجليد او بدقيق الثلج شتاء ورأيت بقايا الغابات الكبيرة القديمة وهذه البقايا اثر في النفس لا يقل عن اثر الغابات الكبيرة القديمة ورأيت المياه المنحدرة من تلال وكان اثرها في النفس لا يقل عن اثر المساقط المائية العالية الكبيرة لدى من كان صاحب خيال واحساس ورأيت دقيق الثلج يكسو الشوارع والبيوت ويجعل النهار المشمس كالليل المقمر فزاد معنى قول ابي تمام وضوحاً في نفسي وان كان ابو تمام يشير الى الزهر لا الى دقيق الثلج وهو قوله

ترى نهاراً مشمساً قد زانهُ تَوَرُّدُ الرُّبى فكأنما هو مُقمر

وقد زادتني مشاهدة تلك المناظر المتعددة قدرة على الوصف حتى على وصف المناظر غير الانكليزية سواء في ذلك الشعر الذي كتبته في انكلترا او بعد عودتي فنظمت قصيدة في وصف الغابة ومظاهرها وأصواتها المختلفة واثرها في النفس واقتداء بناة الكنائس الكبيرة (الكاتدرائية) في القرون الوسطى بمناظرها في فن بناء الاعمدة والسقف على نمط البناء القوطي المعروف وقارنت بين حياة الناس فيها قديماً وبين حياتهم في المدن الكبيرة الحديثة وبقاء اثر شريعة الغابة في النفوس ومنها:

لَبِثَ الناس فيك دهراً فناجاهم سرار الفنون بالايحاء
حين شادوا للدين بيعة ايمانٍ تَبَدَّتْ كالغابة الفَيْحاء
وارتضيت الامان من بعد ذعرٍ لم يزل في (المدينة) الشَّحناء[1]
غابة شادها ابن آدم زلاً دَوْحُها من قصورها الزهراء
ومخوفٍ من الفجاءة فيها كمخوفٍ في الغابة القتلاء
واحتيال لقنص الرزق والصيد سواء في مكرة كسواء
وأفاعٍ في دورها وقرود ووحوش من ناسها بالعراء
فكأن الاقوام لم يخرجوا منك ولا زال عهدك المتنائي
سُنَّةٌ قد سننتها في نفوسٍ إن دعتها كانت جواب النداء

ووصفت المسقط المائي في قصيدة (التلال) ومنها:

يا اخا الصمت في الجلالة والروع وصنو التكاء والهوجاء

(١) ارتضيت الامان اي انها كانت آمنة مسدة للنزهة والقهر

أحسب الخلد مثل مائك يبها ... ر ونفسي في مائه كالهباء
ليت أن الحياة مثلك تعدو ... لا تراخي مثل الجياد البطاء
ان للعيش كدرة تتذرّ النفـ ... ـس ركوداً كآسن في نهاء (١)
فأعنّي على الأوابين من نفـ ... ـسي بقبض نهار مثل البناء
ولعل الحياة كالماء تجري ... بين هذا الثرى وبين السماء
لك في النفس نشوة مثلما استشـ ... ـرف راء من شاهقات العلاء

وقد وصفت منظر دقيق الثلج الذي اذكرني قول ابي تمام في قصيدة الشتاء في الكلثرة ومنها

نشر الضّريبُ على البسيطة حلة ... بيضاء تمحو غبرة الغبراء
يسعى على وضح النهار كأنما ... يسري الفتى في ليلة قمراء
فكأنّ نور البدر ما حلّى الثرى ... برواء تلك الحلة البيضاء
واذا استراح لمقفر من لونه ... راء ترى الاحلام عينُ الرائي

الخ الخ ومنها في وصف المواقد في البيوت

واذا المواقد في البيوت تضاحكتْ ... من شدة الايقاد والإذكاء
رحلتَ الريح سعي اليك بحفله ... والنارَ زهرَ الجنة الفيحاء
يُذكي الوجوه كليلُها فكأنما ... جمران يشتعلان في الظلماء

وراعتني الاعاصير شتاء فقلت قصيدة الريح ومنها :

يا ريح هيجتِ قلباً شجوه واري ... كما تهيجين عود الناب بالنار
يا ريح أي زئير فيك يُفزعُني ... كما يروع زئير الفاتك الضاري
يا ريح اي أنينٍ حنّ ساعـ ... ـه فهل بُليتِ بفقد الصحب والجار
يا ريح مالكِ بين الخلق موحشة ... مثل الغريب غريب الأهل والدار
أم أنت تكلى أصاب الموت واحدها ... تظلُّ تبغي يد الاقدار بالثار

وهكذا تستمر القصيدة في وصف مظاهر الرياح من خير وشر وآثارها المختلفة في النفوس الى ان قلت :

يا ليت أنّ جناحاً منك يُسعدُني ... كما اطير الى أقران أشجار
فأنشد الشعر كالغرّيد في فنن ... وتحملين أغاريدي وأشعاري
يا ليت تهبّ ريح لتح لاخفها ... يُطهّرُ الكونَ من شرٍّ واشرار

(١) النهاء بكسر النون الغدران

الخ. فهل هذا التجديد قد اضرّ بالاسلوب وقطع صلتنا بما تأثرناه في الجزء الاول من الصناعة كما أثبتنا في المقالة السابقة ؟ وحملني ركوب البحر في تلك السفرة على قول قصائد في وصف البحر ومظاهره المختلفة وما يثير في النفس من خواطر وأحاسيس شتى

ألا ليتني لجٌّ كلجّكَ زاخر ... أعبُّ كما تهوى الذهى والبصائر
فكم عبت النفس اللجوج وحاولت ... كبعض سطاك الآيات النوافر (١)
وأخفت من الدرّ النفوس ومن حلى ... كما احتبأت فيك اللهى والذخائر
كأنّ بها أفقاً كأفقك نائياً ... ومن دونه كل المدى يتقاصر
أتطرب من لحن الحرير كأنهُ ... خواطر تتلوها عليك البرائر
كما طرب النشوان من لحن صوته ... فجاشت لديك الراقصات الزواخر
والاّ فما للموج في البحر راقصاً ... دعاهُ عذارى البحر شادٍ وشاعر

ومنها:— فينا يريق الضوء فوقك ماءهُ ... وتجري عليك الريح وهي خواطر
ويتلو عليك الصائدون غناءهم ... يُرجّعهُ لحن من الماء ماثر
ويُسمعُك الملاّح من شجو قلبه ... احاديث قد تاقت لحنّ الحرائر
اذ الجوُّ جهم والرياح كتائب ... وإذ أنت مقبوح السريرة غادر

وهي قصائد كثيرة المعاني والنواحي وقد راقني ايضاً في تلك السفرة تنوع الفصول واختلافها ومباهج مظاهرها نظمت قصيدة سميتها اولاً الصيف ثم سميتها الفصول لانها تصف الفصول كلها وهي طويلة وفيها اوصاف متنوعة للارض والسماء والازهار وأحاسيس الانسان في الفصول المختلفة ومنها في وصف الربيع :

اهواكِ يا روح الربيع فهيتي ... جسماً كجسم الغيد في لألائهِ (٢)
ثم ارقصي بين الخمائل في الضحى ... رقصَ المدلّ بحسنه وبهائه
فلعل في تلك الثغور برء ما ... أعيا الانام بحكمه وقضائه
أردُ الخلود بضمة وبقبلة ... تروي ظماء الحسن من لمياتهِ

وراقتني الازهار وكانت في البلدة التي كانت مستقر دراستي حديقة خاصة بها ولكن احسنها حدائق كيو التي قال فيها الفريد نويس المشودته العذبة السهلة وقد قلت قصائد في وصف الازهار منها في وصف الزهرة عابدة الشمس

(١) سطاك جمع سطوة كربوة وربى وأمثالها وهي كثيرة الورود في شعر الشعراء بالرغم من انكار بعض الاقاضل لها (٢) هذا الوصف فيه التفات الى وصف ابي تمام والبحتري للربيع!

قديرين نحو الشمس وجهاً كأنما ترين بوجه الشمس ما كتب الدهر
وصفراء من نسل المجوس كأنها تعالج امراً لا يعالجهُ الزهر
تَهُمُّ الى وجه السماء كأنما فذاقي صميم الارض من جذرها أُسرُ
كما يشرئبُّ النسرُ هيض جناحهُ مقيمٌ على الخضراء أخاظهُ طير

وقد راقني ابتسامات الوجوه في الحياة الاجتماعية التي كان يزينها الحسان من النساء في تلك الارض الناعية كما راقني ابتسامات الزهور فقلت القصيدة التي منها:

وميض ابتسامات يُضيء جوانحي ويجلو ظلام الهم واليأس من صدري
اذا ابتسمتْ ضاء بيتي ابتسامها كما ضاء وجه البدر في صفحة البحر
يكاد يُضيء الغيبَ في مستقره وميضُ ابتسام رفه صادق النحر
وأسمعُ في نفسي أغاريد جمة يرجع صداها في الجوانح والصدر
كأنَّ بها من صادح الطير شادياً يغرِّدُ في روض من الحب والشعر
واني لكالبذر الدفين ولحظُها غذاه كلحظ الشمس للزهر والبذر الخ.

ولا يتسع المجال لذكر جميع قصائد الوصف التي حركت المناظر المختلفة الجديدة أحاسيسها في نفسي وهذه المناظر مع ذلك لها قيمة عالية لا تحلية وقد اكتسبت شيئاً من الشغف بالوصف والقدرة عليه. فوصفت كثيراً من المناظر والآثار المصرية كما في قصيدة أبي الهول ومنها: —

كأنما في طيِّ الحاظه ذكرى لعهد الزمن الأول
كأنهُ في صمته حارس يحرس باب القدر المقفل
يا عجباً أبصرتَ ما قد مضى ونظراتٌ منكَ لم تقتل
أبصرتَ أكلَ الدهر أبناءهُ ألم تُرعَ من ذلك المأكل

الخ الخ وهذه القصيدة نشرت في المجلات وفي الديوان السادس قبل نشر قصيدة شوقي بك. ومن الوصف أيضاً قصيدة هرم خوفو ومنها

فوقك أرواح عصور خلتْ كديمة سوداء لم تُحسم (١)
هدَّتْ يدُ الدهر مشيدَ البنى وهْوَ اذا شئت كالاحلام
يا علَّم الدنيا الذي قد غدا عجيبة الناثر والمُتهم

(١) هذا فيه التفات الى قول نابليون لجنوده قبل معركة امبابة (ارواح العصور الماضية تطل عليكم من قمم الاهرام)

عَلَتْ بِكَ الارضُ كم قد علا برأسهِ الكِبْرُ فلم يُهْضَم
رفعتَ رأساً منك بها طاله رأسُ البناء الشامخ الاثوم
كأنما كل البنى سُجَّداً من هيبة للملك الاعظم
كم دولةٍ قد ضاع سلطانها ودولة الاهرام لم تهرم

الى ان قلت : —

والنفس تبغي ان ترى كُنهها جسماً في ضخمها الاعظم

ومن قصائد الوصف قصيدة الصحراء وقد اتيحت لي فرص لرؤيتها في اليوم وقتا وبها وصف مشاهدها المختلفة ومنها في وصف الصحو بعد السموم

وكم حار ركب من فجاءة صحوة كما راع مرأى الحسن والعريُ سالب
إذ الجو كالبلور اخلص لونه وصبَّ عليهِ من سنا الشمس ساكب
كذلك غبُّ الغيث ريعان بهجةٍ كأن ظلاله قطرُهُ وهو صائب
تفجَّرَ ينبوعٌ من النور غامر كما غمر الارضَ الماء السوارب
ضياءٌ ترى المألوفةَ من كل منظر به فاذا المألوف منهُ الغرائب
وما فرحة الوطان مادحييه بأصدق منهُ فرحةً وهو آيب

وقصيدة (ليلة حوراء) ومنها

رق الظلام بليلة حوراء كالطرف الكحيل
سحر العيون كسحرها بين الشواهد والشكول

وآخرها : يا ليل بل يا سحر بل يا حُلْمُ ليتك لا تزول

وقصيدة الجبل ومنها :

توحَّدتَ كالرهبان يارب راهب رأى عصمة الاطواد طهر السرائر
تُطِلُّ على السهل الفسيح كأنما تُفكِّرُ في عيش القرى والمآثر
وأنت بناه الله لم يبنِ مثله قدير ولم تبنِ بهِ يد جائر
ومعتصمٍ في معقل منك مانع كما اعتصم الملاَّح بين الجزائر
وأبناؤك الغرُّ الذين تعلموا بسر الحمى ان لا يدينوا لقاهر
فيا ملكاً بُرْدُ الجليد كساؤه ومن فوقهِ تاج النجوم الزواهر
تشاهد جيلاً بعد جيل كأنما تمر بك الاجيال مرُّ العساكر الخ

وقصيدة (على بحر مويس شتاء) وقصيدة (نحو الفجر) ومنها : —

كأن النجوم الغائبات ترحبت تبيت طوال الليل تعبد في دير

إقلب طرفي بينها متفهماً تفهم معنى اللفظ في صفحة السفر
كأن السجن ديرٌ بدا البدر راهب جميل المحيا حولهُ هالة البشر
أيحلم هذا الدوح في سحر ضوئه فقد خلتهُ من هدأة النوم في أسر
ولما تقضى الليل وانجاب جنحه رأيت صباحاً يصبغ الثبت بالتبر

الخ الخ . وهي قصيدة غنية بالاوصاف وقصيدة (عيون الندى) ومنها :

عيون الندى كوني على الزهر انهُ يطل عليّ الخشاق منك ويشرف
فليس عيون الغيد أشعلها الصبى بأحسن في لألائها حين تعطف

الخ وقصيدة (سحر الربيع) ومنها :

أتعرف أنفاس النسيم المعطر وبهجة ازهار الربيع المبكر

وابتداء القصيدة بالتساؤل والاستفهام الوجداني معروف وله أثر في الشعر العربي كقول الشاعر (أتعرف رسم الدار من ام معبد) وهذا مثل قول جويتي في مطلع أنشودته العذبة في وصف محاسن ايطاليا (اتعرف الارض التي تنبت شجر أليمون) ومن أثر اكتساب القدرة على الوصف ايضاً قصيدة (يوم مطير) وقصيدة (الليل) وقصيدة (ابتسامات) وقصيدة (فجر الشباب) و (يقظة في الفجر) ولا داعي لاحصاء كل القصائد التي من هذا النوع فهي كثيرة

فالمصدر الاول للثقافة كان الحياة الجديدة ومشاهدها الاجتماعية والطبيعية والثاني فكم كنا نظل صامتين في الحدائق العامة بعد عزف الموسيقى ونحس ما وصفتهُ في قصيدة (السكون بعد النغم) التي نشرت في المقتطف

(٢) اما المصدر الثاني للثقافة فكان دراستي جويتي وقد نقلت مؤلفاته الى الانجليزية في طبعة بوهن واستدرجني الى دراسته اولاً مدح كارليل وامرسون له وثانياً وجود مؤلفاته في الطبعة التي اشترينا منها كتباً تاريخية للدراسة في الجامعة وقد اعجبني من جويتي شغفه بالثقافة اكثر من اعجابي بمؤلفاته نفسها وان كان بعضها جليلاً ومن الكلمات المأثورة عنهُ (ادرس نفسك) وقد قالها قبله كثيرون فقالها اسكندر پوپ في شعره ولكن جويتي نظم هذه الدراسة وكان من مبادئه أن يحاول المرء ان يستفيد فائدة ثقافية من كل شيء وامر ومن كل انسان يقابله ومن كل مذهب فكري او مذهب في الاحساس حتى ما لا يلائم طبعهُ وهذا هو في الحقيقة مغزى قصته (ولهلم مايستر) وهذا هو سبب اختلاف نواحي الثقافة في شعري ذلك الاختلاف الذي غرَّ بعض الافاضل او بكّت بعضهم من نقد قصائد في وصف بعض جوانب النفس كالبغض في قصيدة (الحب والبغض التي احتذيت فيها (جميل بن معمر)